البحث الصوتي عند العرب القدماء في القرون الهجرية الثلاثة الأولى

د. رضا زلاقي
جامعة امحمد بوقرة - بومرداس

Résumé:
L'origine des études phonétiques arabes remonte au deuxième siècle de l'hégire. Les Arabes se sont intéressésdès le départ à la science qui a présidé à ce que l'on appelle de nos jours phonétique ou phonologie. Dans cet article nous voulonsprésenter les diverses contributions en phonétiques des anciens savants arabes au cours des trois premiers siècles de l'hégire.

ملخص:

نشأت الدراسات الصوتية العربية في فجر القرن الثاني الهجري،تزامن ذلك مع نشأة سائر العلوم العربية، ومن الثابت والمتفق عليه أن العرب القدماء قد تناولوا الكثير من المباحث الصوتية..ولكنهم لم يتناولوها منهجيا تحت مسمى "علم الأصوات" أو "الصوتيات"..وإنما جاءت المباحث الصوتية المختلفة في ثنايا دراساتهم اللغوية والنحوية، ومع ذلك، فلم يمنع هذا من ثراء الدرس الصوتي وغناه بالمصطلحات والمفاهيم التي لم يُتوصل إليها في الكثير من اللغات إلا حديثا، والتي لا يزال أكثرها مستعملا حتى اليوم.وفي هذا المقال عرض لأهم الجهود الصوتية عند العرب القدماء في القرون الثلاثة الهجرية الأولى.

الدرس الصوتي العربي القديم: المفهوم والنشأة.

لم يرد عن العرب القدماء أنهم عرفوا الدرس الصوتي كعلم مستقل منفصل عن سائر العلوم العربية الأخرى، لكنهم تناولوا الكثير من مباحثه في ثنايا مؤلفاتهم المختلفة، في ميدان التجويد والقراءات والنحو والصرف وغيرها... مما يدل على أنهم قد أدركوا البعد الصوتي في أعمالهم هذه، وفي دارسة اللغة على وجه الخصوص. ويجمع العديد من الباحثين في العصر الحديث على أن "علم الأصوات من الوجهة الإبستمولوجية علم غير مضبوط، بحسب المعطيات التي وجدت في التراث العربي، لأسباب كثيرة منها: خلوه من مبادئ نظرية مؤسسة، وتداخل مسائله في علوم متعددة، وعدم استقرار التأليف فيه مفردا، ولذلك نجد المعطيات الصوتية على اختلافها من باب المعارف لا من باب العلوم" [1].

ويعود فضل السبق في هذا المجال للعلامة الخليل بن أحمد الفراهيدي، فهو أول من تناول الصوتيات بشكل واضح ومتفرد "وإن لم يشر إلى علم الأصوات عنوانا أو بابا أو جزءا من

علمه في المقدمة –مقدمة العين- فقد عُرضت المعلومات الصوتية من غير تعيين العلم الذي تنسب إليه" [2]. والأمر كذلك عند من جاء بعد الخليل.

ولكن المثير للدهشة هو ذلك الكم المعرفي الهام من الدرس الصوتي الذي ورد إلينا، وكذا ثراء المادة العلمية التي وصلتنا عنهم، مما يدفع إلى الإشادة بجهودهم الكبيرة، التي جعلت أحد الباحثين يقول:"أن علم الأصوات كان علما واضح الملامح محدد السمات، وليس أدل على ذلك من أن علم التجويد وهو علم استعمل مصطلحات هي المصطلحات التي وجدت في المباحث الصوتية التي عُرفت عند علماء النحو واللغة. ولولا أن علم التجويد اقتصرت مباحثه على قراءة القرآن لكان في العربية علم الأصوات" [3].

وعلى هذا الاعتبار يمكن القول أن بداياته كانت مبكرة جدا مع نزول القرآن الكريم، الذي أخذ عدة وجوه من القراءة يرجع الاختلاف فيها أحيانا كثيرة إلى جوانب صوتية، ومن المعلوم أن هذه القراءات نزلت بمكة المكرمة [4] فكانت معها وجوه الاختلاف الصوتية التي تعتبر البذرة البسيطة لنشأة الدرس الصوتي.

أما عن ظهور مباحثه الأولى، فكان ذلك مع الخليل كما سبق القول "فعلم الأصوات عند العرب واحد من العلوم التي ظهرت في القرن الثاني للهجرة، وكان الخليل بن أحمد الفراهيدي – ت 175هـ- أول من شرع منهاجا للناس في هذا العلم الذي كانت معطياته موزعة بين معارف لغوية عامة ووجوه إقرائية خاصة، بما يتعلق بقراءة القرآن الكريم وتحقيق لفظه وتجويد نطقه...، وليس بين أيدينا أي دليل يشير إلى أن أحدا تقدم الخليل في هذا المجال، لذلك يعد الخليل رائدا لهذا العلم، كريادته لعلوم اللغة والعروض عند العرب بلا منازع" [5].

ومع الإشراقات الأولى للدرس الصوتي عند العرب، وُجد التداخل في مفاهيمه ومصطلحاته التي كانت مختلطة بغيرها من مفاهيم ومصطلحات العلوم الأخرى، "ويفسر ذلك أمران: الأول: تقارب هذه المجالات العلمية، فالخليل سعى إلى تقديم مادة صوتية تصلح أساسا لبناء المعجم مع الأسس اللغوية الأخرى كلما دعت الحاجة إلى ذلك" [6].

وهذا ما أوجد العديد من الموضوعات والمباحث المشتركة بين الدرس الصوتي والنحوي والصرفي، يتناولها كل علم بزاوية النظر الخاصة به.

والأصل في نشأة العلوم أن ترى مباحثها الأولى النور أولا، قبل أن تستقر في صورتها النهائية، وذلك ما كان في الفقه وأصوله، والتفسير والقراءات، وغيرها من علوم العربية. والدرس الصوتي مثلها لم يشذ عن هذه القاعدة المطردة.

وبقيت الدراسة الصوتية عند العرب على حالها تقريبا، إلى أن تجسدت في الشكل الذي نعرفه حديثا، وهو صيرورتها علما له مبادئه وأصوله النظرية وقضاياه المتعددة...

أما إذا اعتبرنا أن علم التجويد ما هو إلا علم الأصوات عند العرب "فإن بدايته من حيث المصطلح ترجع إلى القرن الرابع للهجرة عند ابن مجاهد – ت 324- والخاقاني – ت325- ثم ظهر بعد ذلك من المؤلفات حتى العصر الحاضر الشيء الكثير، مما لا يزال معظمه مخطوطا معروفا، أو تائها مجهولا وربما كان مكي بن أبي طالب القيسي – ت 325- رائد التأليف المنظم في هذا المجال" [7].

إن عدم تحديد الدرس الصوتي أو الصوتيات تحت اسم عند العرب لم يمنع ثراءه وقيمته وغنى مباحثه، فقد ورد في كتب التراث في مجال الدارسة الصوتية الشيء الكثير الغني بالمعلومات والمفاهيم التي لم تُعرف في تاريخ الكثير من اللغات إلا في العصر الحديث، كما أن جل المصطلحات المستعملة عند المهتمين بالدرس الصوتي العربي الحديث إنما أُخذت من التراث بعد تحديدها وتعريفها ووضعها جنبا إلى جنب مع المصطلحات الأجنبية لإيضاح مفاهيمها ومدلولاتها خاصة عند عملية الترجمة.

فالعلماء العرب القدماء يعدُّون بهذا المجهود الذي بذلوه المؤسسين الحقيقيين لهذا العلم، وواضعي لبناته الأساسية، ومنظريه الأوائل، ومشرعي مناهجه ومفاهيمه، وهذا خير دليل على سعة تفكيرهم وإدراكهم لمختلف القضايا اللغوية.

الفونيتيك والفنولوجيا عند العرب القدماء.

الدراسة الصوتية للغة كما هو معروف حديثا، لها شقان كبيران هما: الفونيتيك والفنولوجيا، ولكل واحد منهما مجال بحثه ودرسه، ومنهجه الخاص في ذلك، ومواضيعه المتعددة، وقضاياه المختلفة، وبتظافرهما يمكن إعطاء المعلومات الصوتية الوافية عن لغة ما، وبيان نظامها الفنولوجي.

ويلاحِظ من يتتبع التراث اللغوي العربي القديم بالدرس والتحليل، أن هؤلاء العرب قد قاموا بدراسات معتبرة لأصوات لغتهم عبر تاريخهم الطويل، كانت تزداد فيه نماء وسعة ودقة، وكان كل ذلك منثورا في ثنايا مؤلفاتهم المختلفة، والتي كان بعضها بعيدا حتى مجال الدرس اللغوي بالمفهوم الذي نعرفه به الآن...

ولكن السؤال الذي يمكن أن يطرح في هذا المجال: هل استطاع العرب القدماء أن يتوصلوا إلى مختلف جوانب هذه الدراسة كما نعرفها اليوم؟ وإلى أي حد وفقوا في تناولهم لها؟

عند إلقاء نظرة متفحصة في التراث الصوتي العربي القديم، نلاحظ أنه تراث قيم وزاخر بالمادة العلمية المفيدة، ويكفي دليلا على قيمته أنهم تطرقوا للكثير من المباحث الصوتية بشكل ممتاز وتدقيق كبير...

وإذا أردنا أن نمعن النظر في الجانب المعروف حاليا بالفونيتيك، نجد أن أهم فروعه عند الدارسين المحدثين هي الصوتيات النطقية، وهي تتناول جهاز النطق، ومخارج الحروف وصفاتها وتقوم بتصنيف الأصوات اللغوية على هذين الأساسين، وقد عرف العرب القدماء كل ذلك من خلال ما تركوه في هذا الباب.

إضافة إلى أنهم درسوا ما يسمى بائتلاف الحروف، ووظائفها في الكلام الفعلي ، ومختلف التغيرات التي تطرأ عليها والتي بها يتبدل المعنى، كما أنهم عددوا للحرف الواحد مختلف صوره النطقية، وهذا من صميم ما تدرسه الفنولوجيا اليوم.

وهم بهذا قد تناولوا جل مباحث الدراسة الصوتية، كما يقر بذلك الكثير من الباحثين المتخصصين في العصر الحديث، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على عبقريتهم الفذة وذكائهم المتوقد الذي ترك هذا الكم المعرفي القيم في الصوتيات.

يرى بعض الدارسين في العصر الحديث أن العرب القدماء قد عرفوا الدرس الصوتي بجانبيه الفونيتيك والفنولوجيا، يقول أحمد قدور: "وإذا ما نظرنا إلى الدرس الصوتي عند العرب من الوجهة اللسانية، تبين لنا أن هذا الدرس يقسم – كما يقسم علم الأصوات الحديث على قسمين كبيرين هما: الدرس الصوتي المعادل للفونيتيك، والدرس الصوتي المعادل للفنولوجيا... ويستطيع الدارس أن يلقي نظرة على مقدمة كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي ليتأكد من وجود هذين القسمين من أقسام علم الأصوات" [8].

إضافة إلى تفصيلات أخرى في هذين الجانين لها أهميتها إذ أنها "تؤسس لعلم الأصوات ابتداء، فقد ضمت المقدمة مبادئ علم الأصوات النطقي، كالحديث عن جهاز النطق وأعضائه، وتحديد المنظومة الصوتية، والانتباه إلى مبدأ اللغة الصوتي، وتقسيم الأصوات إلى صوائت وصوامت، كما ضمت مبادئ علم الأصوات، ومبادئ علم الأصوات التشكيلي، كائتلاف الحروف، والصفات التركيبية، وصوغ الكلمات حكاية للأصوات الطبيعية... ونحو ذلك" [9].

الخليل وبدايات تأسيس البحث الصوتي كان الخليل بن أحمد الفراهيدي من السابقين للتأليف في اللغة والنحو والصرف والمعاجم، وقد وزع مباحثه الصوتية بين معجم العين وكتاب العروض، ولو ألقينا نظرة على معجم العين لوجدنا أن أهم ما يميزه أنّ مؤلفه لم يجمع مفرداته عن طريق استقراء ألفاظ اللغة وتتبعها في مؤلفات السابقين وجمعها من شفاه الرّواة

كما فعل غيره، "وإنّما جمعها بطريقة منطقية رياضية، حيث لاحظ أنّ الكلمة قد تكون ثنائية وقد تكون ثلاثية وقد تكون رباعية وقد تكون خماسية، [10] وبنى على هذا الأساس تقاليبه.

وقد شكك العديد من الدارسين في نسبة كتاب العين إلى الخليل إلا أنهم أجمعوا على أن مقدمة الكتاب من وضعه وهي تقع فيما يقرب من ست عشرة صفحة احتوت - إضافة إلى أصول مباحث النحو والصرف- أولى أساسيات الدرس الصوتي العربي، "ثمّ أنّ مقدمة العين على إيجازها أول مادة في علم الأصوات دلّت على أصالة علم الخليل وعلى أنّه صاحب هذا العلم ورائده الأوّل، وساعده على ذلك سمعه المرهف واهتمامه بموسيقى الشعر وبصوره، كما تعتبر مقدمة العين أول تصنيف للأصوات حسب موضع النطق أو حسب المخارج" [11].

وأبرز ما يدل على انتباه الخليل إلى الخاصية الصوتية للغة، أنه ابتكر طريقة متفردة في ترتيب مادته المعجمية التي حواها العين، وهي ترتيب المداخل لا على أساس ألفبائي يعتمد على الأشباه والنظائر وإنما على أساس مبرر علميا، وهو ترتيب المادة على أساس صوتي، إذ ترتب المداخل على أساس مخارج الحروف من أدناها إلى أقصاها مخرجا، وهذه أولى مؤشرات انتباه الخليل للمبدأ الصوتي للغة. "فالخليل الذي يعيش في جوِّ الأصوات والأنغام في قراءة القرآن، وتفعيلات العروض وفي ألحان الموسيقى وإيقاعاتها يبتكر نظاماً جديداً قائماً على الأصوات". [12]

أما عن مجموع مباحثه الصوتية فإنها يمكن أن تصنف ضمن القسم المعروف حديثا بالنطقيات وهو القسم الذي وهو يدرس "نشاط المتكلم بالنظر في أعضاء النطق، وما يعرض لها من حركات، فيعين هذه الأعضاء، ويحدد وظائفها، ودور كل منها في عملية النطق، منتهيا بذلك إلى تحليل ميكانيكية إصدار الأصوات من جانب المتكلم". [13]

فمجال بحث هذا الفرع دراسة جهاز النطق وأعضائه، وما يطرأ عليها من تغيرات وتحولات أثناء الكلام مع مختلف الأصوات اللغوية، وبشكل أدق فإن الصوتيات النطقية "تدرس الأصوات اللغوية من حيث المخارج والصفات" [14].

تبين دراسة المخارج المواضع التشريحية التي يتم في مستواها إنتاج الصوت اللغوي، وتعين جملة خصائصه التي تميزه عن غيره من الأصوات الأخرى.

هذه المخارج لا يمكن أن نكتفي بدراستها حال سكونها، أي كونها أعضاء تشريحية في جهاز النطق فقط، "بل أيضا حال الكلام وهي تقوم بحركات معينة وتتمثل أوضاعا عديدة بما يفسر عملية إنتاج الأصوات اللغوية وطريقة هذا الإنتاج" [15].

ورد في معجم اللسانيات عند الحديث عن دور الصوتيات النطقية وأهميتها في التصنيف: "وتصنف الأصوات عادة على أساس اعتبارين: اعتبار عضوي وفسيولوجي يتمثل في مكان الصوت أو مخرجه، واعتبار صوتي يتمثل في طبيعة الصوت أو الصفة التي يظهر بها في طريقة النطق" [16].

مخارج الحروف عند الخليل:

تحدث الخليل عنه مخارج الحروف بشكل واف، فبعد أن قسم المخارج إجمالا انتقل إلى تفصيلها مع كل حرف من الحروف، ويتبن لنا من كلام الخليل أنه قد عرف المخرج وسماه "الحيز" و"المبدأ" وأن لكل مخرج صوت ينسب إليه، وبدأ بمخرج **الجوف** وذكر له أربعة حروف فقال: "وأربعة أحرف جوف وهي الواو والياء والألف اللينة والهمزة وسميت جوفا لأنها تخرج من الجوف فلا تقع في مدرجة من مدارج اللسان ولا من مدارج الحلق..إنما هي هاوية في الهواء فلم يكن لها حيز تنسب إليه إلا الجوف" [17].

ثم ذكر مخرج **الحلق** فقال: "فأقصى الحروف كلها العين ثم الحاء ولولا بحة في الحاء لأشبهت العين لقرب مخرجها من العين ثم الهاء ولولا هتة في الهاء لأشبهت الحاء لقرب مخرج الهاء من الحاء فهذه ثلاثة أحرف في حيز واحد بعضها أرفع من بعض ثم الخاء والغين في حيز واحد كلهن حلقية" [18] وهو في حديثه يفصل في أحياز الحروف الحلقية فمع أنها جميعا حلقية إلا أنها تتمايز فبحة الحاء تفاصلها عن العين وهتة الهاء تميزها عن الحاء .. وأكد ذلك بذكر أن هذه الحروف بعضها أرفع من بعض أي أنها تتقارب مخرجا ولا تتطابق.

وذكر مخرج **اللهاة** فقال:" ثم القاف والكاف لهويتان والكاف أرفع" [19] فبين الفرق بين مخرج الكاف ومخرج القاف بأن مخرج القاف هو الأقرب إلى الحلق بينما مخرج الكاف أبعد (أرفع).

ثم ذكر مخرج **شجْر الفم** فقال:"والجيم والشين والضاد شجْرية لأن مبدأها من شجْر الفم أي مفرج الفم" [20] وشجر الفم هو مكان اتساعه أو وسطه وهو مخرج الحروف المذكورة، وذكر كلمة "مبدأ" بمعنى مخرج أو حيز.

وذكر مخرج **أسلة اللسان**، وقال في ذكر حروف هذا المخرج: "والصاد والسين والزاء أسلية لأن مبدأها من أسلة اللسان وهي مستدق طرف اللسان" [21] والأسلة هي الجزء الأمامي من طرف اللسان وعندما يتسرب الهواء بينه وبين الأسنان العليا تحدث الحروف المذكورة.

وذكر مخرج **نطع الغار الأعلى** ونسب له التاء والدال والطاء فقال: "والطاء والتاء والدال نطعية لأن مبدأها من نطع الغار الأعلى" وتحدث هذه الحروف عندما يلامس طرف

اللسان نطع الغار الأعلى وهو في اللغة كما جاء في اللسان: "النطع والنُّطع والنطعة ما ظهر من غار الفم الأعلى وهي الجلدة الملتصقة بعظم الحليقاء فيها آثار كالتحزيز، وهناك موقع اللسان في الحنك، والجمع نطوع" [22].

وانتقل بعد ذلك إلى مخرج **اللثة** ونسب إليها الحروف اللثوية فقال: " والظاء والذال والثاء لثوية لأن مبدأها من اللثة" [23].

ثم ختم حديثه عن المخارج بذكر المخرج **الذلقي والشفوي** وبين حروفهما وحدد معنى مصطلحاتهما قائلا: " والراء واللام والنون ذلقية لأن مبدأها من ذلق اللسان وهو تحديد طرفي ذلق اللسان والفاء والباء والميم شفوية لأن مبدأها من الشفة" [24].

ويكون الخليل بهذا قد استوفى كل مخارج الحروف العربية شرحا وتفصيلا، وعلى الرغم من قلة الوسائل العلمية الحديثة المعينة على التحديد الدقيق لمخارج الحروف إلا أن نتائج الخليل كانت دقيقة إلى حد بعيد، مما يدل على شده تمحيصه في البحث قبل الفصل بقول كما يدل على حسن تقديره في ذلك.

صفات الحروف عند الخليل:

تحدث الخليل عن صفات الحروف أثناء حديثه عن مخارجها فهو لم يفْصل بين البابين (المخارج والصفات) ولكن وصفه للحروف استعمل عند من لحقه من العلماء وزاد عليه علماء القراءات والتجويد الشيء الغزير.

وأهم الصفات التي تطرق إليها الخليل هي:**الذلاقة** يقول الخليل: "اعلم أن الحروف الذُّلق والشفوية ستة ر ل ن ف ب وإنما سميت هذه الحروف ذلقا لأن الذلاقة في المنطق إنما هي بطرف أسلة اللسان والشفتين" [25] أما من جاء بعد الخليل من المجودين والقراء فقد جعلوا الذلاقة صفة لها ضد وهو الإصمات، وجمعوا الحروف المذلقة في عبارة "فر من لب" وضدها الحروف المصمتة وهي الباقية، يقول ابن الجزري في متن الجزرية:

وصاد ضاد طاء ظاء مطبقة وفر من لب الحروف المذلقة [26]

وذكر الإصمات في أول حديثه عن الصفات كمقابل للإذلاق:

صفاتها جهر ورخو مستفل منفتح مصمتة والضد قل [27]

ووصف الخليل الهمزة بعد أن تحدث عن مخرجها بأنها **مهتوتة مضغوطة** يقول: "وأما الهمزة فمخرجها من أقصى الحلق مهتوتة مضغوطة [28] إلا أنه لم يشرح ماهية هذا الوصف ومما يُلاحظ أن أغلب المتأخرين لم يصف الهمزة بهذين الوصفين.

ووصف بعض الحروف **بالنصاعة وضخامة الجرس،** فقال في معرض حديثه عن العين والقاف "لا تدخلان في بناء إلا حسنتاه لأنهما أطلق الحروف وأضخمها جرسا. فإذا

اجتمعتا أو إحداهما في بناء حسن البناء لنصاعتهما"[29]. ومعروف اتصاف العين والقاف بصفات القوة فالجهر للعين والحبس والقلقلة للقاف، إلا أن المتأخرين لم يجعلوا هاتين الصفتين ضمن صفات الحروف، ولا جمعوا بين العين والقاف في صفة معينة.

وتحدث الخليل - فيما يشبه الحديث عن الصفات المتقابلة- ذاكرا صفتي **الليونة والصلابة، والكزازة والخفوت** وهي صفات متعلقة بالطاء والدال والتاء، فوصف الدال بالليونة ووصف الطاء بصفة مقابلة لها وهي الصلابة أو الكزازة، بينما وصف التاء بالخفوت، يقول: "الدال لانت عن صلابة الطاء وكزازتها وارتفعت عن خفوت التاء فحسنت"[30] وجعل الدال بذلك في منزلة متوسطة بين التاء والطاء.

والذي جاء في كتب المتأخرين في الفروق بين هذه الأصوات، أن التاء مهموسة (خفوت) والدال مجهورة، وما يميز الدال عن الطاء أن الثانية مطبقة، ويبدو أن الخليل قد قصد بالخفوت الهمس، وقصد بالصلابة والكزازة بعض أوصاف القوة قد تكون الإطباق أو الجهر أو القلقلة، لأن الدراسات بعد الخليل لم تذكر هذه الصفات. وبالطريقة نفسها فرّق بين "س ز ص".

وذكر الخليل من الصفات **اللين والهشاشة** قائلا: "وإنما استحسنوا الهاء في هذا الضرب للينها وهشاشتها وإنما هي نفس لا اعتياص فيها"[31] ولم يذكر مفهوما اصطلاحيا للين والهشاشة، ولعله أراد أن يشير إلى صفات الضعف التي تتميز بها الهاء كالهمس والرخاوة والاستفال، وهذه الصفة لم توصف بها الهاء بعد استقرار مباحث صفات الحروف.

كما ذكر الخليل صفة **البحة** للحاء وجعلها السمة الفارقة بينها وبين العين مما يدل على إدراكه تماما لصفة الهمس إذ لا فرق بين العين والحاء إلا في جهر الأولى وهمس الثانية. يقول: " فأقصى الحروف كلها العين ثم الحاء ولو لا بحة في الحاء لأشبهت العين لقرب مخرجها من العين".

وخلاصة القول حول حديث الخليل عن الصفات أن لم يفصل فيها التفصيل الموسع الذي فعله مع بحث المخارج، كما أن صفاته التي ذكرها للحروف لم يكتب لها الاستعمال عموما بعد أن استقرت مباحث الصفات عند المجودين والقراء.

عروض الخليل: شعبة أخرى من الصوتيات

قد يتبادر إلى الأذهان للوهلة الأولى عند طرح موضوع العروض والصوتيات التساؤل عن الرابط الذي يربط العلمين؟ إذ أن علم العروض يدرس الشعر وأوزانه بينما مجال بحث الصوتيات هو الأصوات اللغوية. والحقيقة أن علم العروض الذي وضعه الخليل بن أحمد الفراهيدي هو بحث صوتي آخر له أهميته وفائدته.

عمد الخليل في العروض أولا إلى التفريق بين أنواع الأصوات اللغوية وذلك من خلال تصنيفه للمتحركات والسواكن، فالسواكن - كما صنفها- هي التي نعرفها اليوم بالصوامت، بينما المتحركات هي الصوامت المتبوعة بصوائت قصيرة أو ما يعبر عنه حديثا بالمقطع القصير.

وإذا كانت نظرة الخليل هذه إلى الأصوات اللغوية وأنواعها مزية تضاف إلى مزاياه فإن بعض المحدثين ينتقد الخليل في عدم اعتماده على نظام المقاطع فيكون المقطع هو الوحدة الأساسية في التقطيع بدلا من المتحركات والسواكن، ولكن هذا الرأي في اعتماد المقطع لم يصمد طويلا إذ انتقد التحليل المقطعي في الكثير من الدراسات الحديثة وعد التحليل الخليلي أدق.

سيبويه وانتهاء طور التأسيس

يعد كتاب سيبويه من أعظم ما ألف في اللغة العربية وعلومها إلى يوم الناس هذا، ومع أن الكثير من الدارسين لا يرى في كاتب سيبويه إلا كتابا في النحو والصرف إلا أن الكتاب أكبر من ذلك بكثير، فالبلاغي يراه كتابا مؤسسا للبلاغة وعلومها لربطه مباحث النحو والصرف بمباحث الدلالة، ودارس الصوتيات يراه مصدرا تراثيا مهما من مصادر الصوتيات..

والذي يعنينا من كتاب سيبويه في هذا السياق هو الجانب الصوتي وكيف تناوله سيبويه وما أهم المباحث الصوتية التي تطرق إليها وما منهجه في ذلك..

مخارج الحروف عند سيبويه:

قبل أن يتحدث سيبويه عن مخارج الحروف العربية يشرع في تحديد وحدات النظام الصوتي للغة العربية بالمصطلح الحديث، وما تعداده للحروف الحربية الصائتة منها والصامتة إلا بيان لهذا النظام الصوتي، بل أنه في هذا الباب تطرق حتى إلى بعض مباحث الفنولوجيا الحديثة بذكره للتنوعات الصوتية (الألوفانات) لبعض الحروف (الفونيمات) وذكر أيها مقبول وأيها مرفوض، والأحرف العربية عنده هي: الهمزة، الألف، الهاء، العين، الحاء، الغين، الخاء، الكاف، القاف، الضاد، الجيم الشين، الياء، اللام، الراء، النون، الطاء، الدال، التاء، الصاد، الزاي، السين، الظاء، الذال الثاء، الفاء، الباء، الميم والواو.[2 3]

وأضاف إلى هذه الحروف الأصول حروفاً فروعاً مستحسنة، وهي في الحقيقة تنوعات صوتية لها (ألوفونات) يقول : "وتكون خمسة وثلاثين حرفاً بحروف هنَّ فروع وأصلها من التسعة والعشرين وهي كثيرة يؤخذ بها وتستحسن في قراءة القرآن الكريم والأشعار وهي: النون الخفيفة، والهمزة بين بين، والألف التي تُمال إمالة شديدة، والشين التي

كالجيم، والصاد التي تكون كالزاي، وألف التفخيم يعني بلغة أهل الحجاز في قولهم: الصلاة والزكاة والحياة".[33]

كما أضاف إليها حروفاً فروعاً مستهجنة غير مستحسنة وهي: "الكاف التي بين الجيم والكاف، والجيم التي كالكاف، والجيم التي كالشين، والضاد الضعيفة، والصاد التي كالسين، والطاء التي كالتاء، والظاء التي كالثاء، والباء التي كالفاء".[34]

وهو بهذا قد أوفى في الحديث عن النظام الصوتي للغة العربية من جانب الفنولوجيا خاصة، وحديثة عن الحروف المستحسنة والحروف المستهجنة أقطع دليل على إدراكه لمفهوم الفونيم المجرد وتنوعاته الصوتية المختلفة.

أما مخارج الحروف عنده فهي أربعة إجمالا وستة عشر مخرجا تفصيلا، وهي كما يأتي:[35]

الحلق: وبه ثلاثة مخارج:

- أقصى الحلق: الهمزة والهاء والألف.
- ووسطه: مخرج العين والحاء.
- وأدناه: مخرج الغين والخاء.

اللّسان: ومخارج حروفه هي:

- من أقصى اللّسان وما فوقه من الحنك الأعلى مخرج القاف.
- من أسفل من موضع القاف من اللّسان قليلاً ممّا يليه من الحنك الأعلى مخرج الكاف.
- ومن وسط اللّسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى مخرج الجيم والشين والياء.
- من بين أول حافة اللّسان وما يليها من الأضراس مخرج الضاد.
- و من حافة اللّسان من أدناها إلى منتهى طرف اللّسان وما بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى وما فوق الثنايا مخرج النون.
- من مخرج النّون غير أنّه أدخل في ظهر اللّسان قليلاً لانحرافه إلى اللام مخرج الراء.
- ممّا بين طرف اللّسان وفويق الثنايا مخرج الزاي والسين والصاد.
- و ممّا بين طرف اللّسان وأطراف الثنايا مخرج الظاء والذال والثاء.

الشفتان:

- و من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا مخرج الفاء.
- و ممّا بين الشفتين الياء والميم والواو.

الخيشوم:

- ومن الخيشوم مخرج النون الخفيفة.

ومع أن سيبويه قد تتلمذ على يدي الخليل - كما يصرح هو نفسه بذلك- ألا أنه قد تفوق على شيخه في باب الحديث عن مخارج الحروف، فمن حيث المنهجية عمد الخليل إلى ذكر المخارج مرتبة متتالية، بينما ذكر سيبويه المخارج إجمالا ثم جاء بتفصيلها، إضافة إلى أن شرح سيبويه لمختلف العمليات الفيزيولوجية الحاصلة في جهاز النطق أثناء الكلام كان أوفى من شرح الخليل لها.

صفات الحروف عند سيبويه:

يظهر الفرق جليا بين الخليل وسيبويه في موضوع الصفات، فالخليل كان يذكر عن صفات الحروف عرضا في ثنايا حديثه عن المخارج وهي صفات معدودة، أما سيبويه فقد أتى بالعديد من الصفات التي لم ترد عند الخليل، كما تفرد في هذا البحث بطبيعة المنهج المتبع المختلف عن منهج الخليل، فسيبويه يعرف الصفة، ويشرح تعريفها، ثم يمثل لها ويذكر أخيرا الأصوات المتميزة بهذه الصفة، وبسبب عمل سيبويه هذا يذهب الكثير من الدارسين المحدثين إلى أن الدرس الصوتي قد اكتمل ونضج عند العرب مع سيبويه تنظيريا أو تطبيقيا.

ميز سيبويه في مبحث الصفات بين صفات لها ضد (متضادة)، وأخرى لا ضد لها (منفردة) وسنوردها كما ذكرها في كتابه.

<u>الجهر والهمس</u>

الجهر: يعرّف سبويه المجهور بأنّه: "حرف أشبع الاعتماد في موضعه ومن النّفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه ويجري الصوت".[36] والحروف المجهورة هي: ء، ا، ع،غ، ق، ج، ي، ض، ل، ن، ر، ط، د، ز، ظ، ذ، ب، م، و.[37]

الهمس: يعرّف "سبويه" الهمس بقوله: "و أمّا المهموس فحرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى النّفس معه ".[38] والحروف المهموسة هي:ه، ح، خ، ك، ش، س، ت، ص، ث، ف.[39]

وقد ورد تعريف سيبويه لكل من الجهر والهمس في أكثر كتب اللاحقين، وبقيت كلماته بلا تغيير، والجهر من مصطلحات سيبويه، وقد تبع الكثير سيبويه في هذا التعريف "فشاع عند العلماء شيوعا كبيرا، وأعيدت عباراته دون تعديل فيها أو تبديل،مما جعله سمة لهذا المصطلح، كما هو تعريف له"[40].

<u>الشدة والرخاوة والتوسط</u>

الشدة: ويعرّف سبويه الحرف الشديد بقوله: "هو الذي يمنع الصوت أن يجري فيه وهو الهمزة والقاف والكاف والجيم والطاء والدال والتاء والباء" [41].

الرخاوة: ويعرّف سيبويه الحروف الرخوة بقوله: "و منها الرخوة وهي الهاء والحاء والغين والخاء والشين والسين والصاد والزاي والضاد والثاء والذال والظاء والفاء". [42]

كما أنه انتبه إلى أن هناك حروفا لا هي بالشديدة ولا هي بالرخوة عرفت - فيما بعد- بالحروف البينية أو المتوسطة بين الشدة والرخاوة، وذكر سيبويه منها العين فقال: "وأما العين فبين الرخوة والشديدة" [43].

وإذا كان المحدثون قد اختلفوا شيئا ما حول مفهوم سيبويه لكل من الجهر والهمس بين من وافقه التعريف والتحديد وبين من خالفه بحجة عدم إدراك القدماء للعضو المسبب للجهر في الكلام وهو الحنجرة وأوتارها الصوتية، فإن الجميع قد اتفقوا في دقة سيبويه في تعريف الشديد والرخو وأشادوا ببراعته في ذلك.

الاطباق والانفتاح

الإطباق: يعرف سيبويه الحروف المطبقة بقوله: "فأما المطبقة فالصاد، الضاد، الطاء، الظاء ... وهذه الحروف الأربعة إذا وضعت لسانك في مواضعهن انطبق لسانك من مواضعهن إلى ما حاذى الحنك الأعلى من اللّسان ترفعه إلى الحنك ... ولولا الإطباق لصارت الصاد سيناً والطاء دالاً والظاء ذالاً ولخرجت الظاء من الكلام لأنّه شيء من موضعها غيرها". [44]

الانفتاح: يصف سيبويه باقي الحروف عدا الأربعة المطبقة بالمنفتحة وهي : "كلّ ما سوى ذلك من الحروف المطبقة لأنك لا تطبق لشيء منهن لسانك ترفعه إلى الحنك الأعلى". [45] والحروف المنفتحة هي ما سوى حروف الإطباق.

إن صفات الحروف السابقة هي كل ما ذكر سيبويه من الصفات المتقابلة، ثم تطرق بعد ذلك إلى بعض الصفات الخاصة بحروف محددة وهي الصفات المعروفة بالمنفردة أو الصفات التي لا ضد لها وهي:

الانحراف:

ويعرّف سيبويه الحرف المنحرف بأنّه: "حرف شديد جرى فيه الصوت لانحراف اللّسان مع الصوت ولم يعترض على الصوت كاعتراض الحروف الشديدة وهو اللام". [46] فصوت اللام يبتدئ في نطقه كصوت شديد وينتهي كصوت رخو لامتداد النطق به بسبب انحراف اللسان عن موضعه أي تركه التضييق الحاصل على مستوى المخرج في نقطة معينة لا على طول المخرج وهو ما يسبب هذه الصفة.

الغنّة:

قال سيبويه عنها: "و منها حرف شديد يجري معه الصوت من الأنف، فإنّما تخرجه من أنفك واللّسان لازم لموضع الحرف لأنّك لو أمسكت بأنفك لم يجرِ معه الصوت وهو النون، وكذلك الميم". [47]

والميم والنون كاللام إذ هما شديدان بداية رخوان نهاية، وتأتي رخاوتهما لا من الانفتاح الجزئي في المخرج كما هو الشأن مع اللام، وإنما من انفتاح يسمح بتسرب الصوت من الأنف، والرنين الحادث في الأنف من جراء مرور الصوت به هو الغنة.

التكرير:

ويعرّف سبويه الحرف المكرر بقوله: "و منها المكرر وهو حرف شديد جرى فيه الصوت لتكريره وانحرافه إلى اللام فتجافى الصوت كالرخوة، ولو لم يكرر لم يجر الصوت فيه وهو الراء". [48]

وما قيل عن اللام والميم والنون يقال عن الراء وإن كان حدوث الراء يتم بطريقة أخرى فهو يبدأ شديدا ثم ينفتح المخرج متيحا للهواء المرور الذي لا يستمر إلا فترة وجيزة جدا ليعاود المخرج الانغلاق والانفتاح مرة أخرى وهكذا..

وإذا كان سيبويه لم يذكر من الحروف المتوسطة بين الشدة والرخاوة إلا العين، فقد أضيف إليها - فيما بعد- اللام والراء والميم والنون، فأصبحت الحروف المتوسطة بين الشدة والرخاوة هي الحروف المجموعة في العبارة "لن عمر".

اللّين:

يعرّف سيبويه الأصوات اللينة بقوله: "و منها اللينة وهي الواو والياء لأن مخرجها يتسع لهواء الصوت أشد من اتساع غيرها كقولك: وأي والواو وإن شئت أجريت الصوت ومددت". [49]

والمقصود من الحروف اللينة الياء والواو غير المديتين وقد صنفهما معا لأن اتساع المخرج عند نطقهما لا يكون في غيرهما، حتى كانتا أشبه بالحركات، وهو ما جعل بعض الدارسين المحدثين يصنفونهما من أشباه الصوائت لا من الصوامت.

ويمكن أن نقول كخلاصة لما سبق أنه إذا الفضل يرجع إلى الخليل في تأسيس الدرس الصوتي العربي فإن فضل سيبويه يرجع إلى إكماله التأسيس، إذ أصبح عمله في الكتاب في جانب الصوتيات مرجعا أساسيا لكل من جاء بعده من الدارسين وبقيت جل مصطلحاته ومفاهيمه خالدة حتى يومنا هذا.

مناقشات حديثة

يحاول بعض المحدثين تلافي ما يرونه أخطاء وقع فيها دارسو الصوتيات الأوائل وسنتناول في هذا الباب أهم المسائل التي طرحت للنقاش.

حول الجهر والهمس

عرّف سيبويه الصامت المجهور بأنه: "حرف أشبع الاعتماد في موضعه، ومنع النفس أي يجري معه حتى ينقضي الاعتماد ويجري الصوت، فهذه حال المجهورة" [50] وعرّف الصامت المهموس بأنه "حرف أضعف الاعتماد في موضعه، حتى جرى النفس معه، وأنت تعرف ذلك إذا اعتبرت فرددت الحرف مع جري النفس، ولو أردت ذلك في المجهورة لم تقدر عليه" [51].

وقد لاحظ المحدثون على تعريف الجهر والهمس عند سيبويه أنه يفتقد الدقة المطلوبة، بسبب عدم إدراكهم للعضو الذي يسبب الجهر أو الهمس، ويرى العديد منهم أن تعريف الهمس يصلح للرخاوة أكثر من صلا حيته للهمس، وهم بذلك يختلفون مع القدماء في تعريف الجهر وأسبابه، فهو في الحقيقة: "تذبذب الأوتار الصوتية عند النطق بالحرف" [52]

وانطلاقا من تعريف الجهر فإن المحدثين قد عرّفوا الصوت المهموس بأنه "الصوت الذي لا يتذبذب الوتران عند نطقه" [53] "فإذا اهتزا مع إحداث الصوت، كان الصوت مجهورا والعملية جهرا، وإذا لم يهتزا كان الصوت مهموسا والعملية همسا" [54]. "وعند الجهر تنفتح الحبال الصوتية وتنغلق بسرعة، لتجزيء الكتلة الهوائية إلى نفخات متعاقبة" [55].

فالاختلاف الواقع بين تعريفي العرب القدماء والمحدثين للجهر واضح وجلي، مرده إلى أن العرب القدماء لم يهتدوا كما يبدو إلى عضو النطق الذي يسبب عملية الجهر وهو الحنجرة بما تحتويه من أوتار صوتية، فلم يرد في مؤلفاتهم العديدة ذكر للحنجرة، ولا حديث عن دورها في عملية الجهر، لأجل ذلك كان تعريفهم له محاط بشيء غير قليل من الغموض، والدليل على ذلك أن أغلب من جاء بعد سيبويه اكتفى بترديد تعريف سيبويه للجهر دون شرح أو إضافة، والحقيقة أن تصنيف سيبويه للأصوات من حيث الجهر والهمس "يقوم على أساس تجريبي بسيط، وهناك رأي منسوب لسيبويه سجله الصيرافي في شرح كتاب سيبويه يوضح منهج سيبويه في التجريب، يتلخص هذا الرأي في أن بعض الأصوات يمكن أن تُنطق يرفع الصوت فقط، فالدال والزاي مثلا لا يمكن نطقها الواضح المتميز بصوت خفيض، فإذا حاول الإنسان نطق الدال بصوت خفيض فإنه لا يستطيع نطقها دالا بل تاء، وعلى العكس من هذا فهناك أصوات تنطق بأي درجة في الصوت مع أنها تنطق أيضا بخفض الصوت دون أن يحدث لها أي تغيير، مثل التاء والسين، وعلى هذا فهناك أصوات لا يجوز أن تنطق إلا بصوت عال

نسبيا، وهذه هي المجهورة، والجهر رفع الصوت، وهناك أصوات يمكن أن تنطق بخفض الصوت، وهذه الأصوات هي المهموسة، والهمس خفض الصوت، وبهذا إتضح من هذا الرأي المنسوب لسيبويه الطريقة التي ميز بها سيبويه بين المجهور والمهموس" [56].

وهذا يدل على إدراك القدماء لمفهوم الجهر شيئا ما، إذ عرفوا أن له أثرا صوتيا ذا علو نسبي في الحروف المجهورة، لكنهم لم يدركوا العامل المسبب لعملية الجهر.

ولأجل إيضاح التعريف الذي أورده سيبويه للجهر، اقترح تمام حسان شرحا له يقول فيه: "فالمجهور صوت شدد الضغط معه، ولم يسمح للهواء المهموس أن يجري معه، حتى ينتهي الضغط عليه، ولكن يجري الصوت أثناء نطقه، فهذه حال الأصوات المجهورة" [57].

والخلاصة أن سيبويه قد أدرك معنى الجهر، والأثر الصوتي الناتج عنه، والأمر كذلك بالنسبة للهمس، ولكن فاته أن يدرك العضو المسبب له، وذلك لأسباب موضوعية تتعلق بالتطور التقني والعلمي في مجال التشريح الذي لم يكن متوافرا في ذلك العصر.

حول الشدة والرخاوة

قال سيبويه في تعريف الشدة: "ومن الحروف الشديد، وهو الذي يمنع الصوت أن يجري فيه" [58].

الذي يؤخذ على تعريف سيبويه للشدة أنه تعريف غامض ومتداخل مع تعريف الجهر، ويرى بعض الدارسين في العصر الحديث أن سيبويه والعرب القدماء لم يفرقوا بين الجهر والشدة تفريقا واضحا، مما أثار اللبس في مفهوميهما.

أما مفهوم الشدة عند المحدثين فهو: "أن يحبس مجرى الهواء الخارج من الرئتين حبسا تاما في موضع من المواضع، وينتج عن هذا الحبس أو الوقف أن يضغط الهواء، ثم يطلق سراح المجرى الهوائي فجأة، فيندفع الهواء محدثا صوتا انفجاريا". [59]

في هذا التعريف وصف دقيق لمختلف العمليات الفسيولوجية التي تسبب صفة الشدة، فالتيار الهوائي عند خروجه من قنوات جهاز النطق وفي أثناء اندفاعه تحدث له إعاقة كاملة في موضع من المواضع، بحيث ينغلق جهاز النطق في هذا الموضع انغلاقا تاما، ثم يبقى على ذلك مدة قصيرة من الزمن، بعدها ينفتح ممر الهواء فجأة فاسحا المجال أمام التيار الهوائي الذي يخرج في شكل انفجار صوتي.

وقد قام المحدثون باستعمال طرق عديدة لبيان المواضع التي يتم على مستواها الإغلاق مع الحروف الشديدة المختلفة، منها تقنية التصوير بالأشعة التي تُظهر ما يشبه المقاطع في جهاز النطق، والتي تمكّن أيضا من رؤية أعضاء النطق الداخلية في حالة الحركة، أي قبل الإغلاق وأثناءه وبعده.

وكذلك عرفت الرخاوة أو الاحتكاك حديثا بدقة وهي: "عدم انحباس الهواء انحباسا محكما عند النطق بالصوت، وإنما إبقاء المجرى عند المخرج ضيقا جدا، مما يسمح بمرور النَفَس، محدثا نوعا من الصفير أو الحفيف، تختلف نسبته تبعا لنسبة ضيق المجرى" [60].

ويمكن القول بصفة عامة أن العرب القدماء قد أدركوا حقيقة الشدة، وفرقوا بينهما وبين الرخاوة، بدليل تصنيفهم للحروف الشديدة والرخوة تصنيفا دقيقا، وعرفوا أن هناك حروفا لا هي بالشديدة ولا هي بالرخوة، فجعلوها في مجموعة أخرى، وليس عمل المحدثين في الحقيقة إلا إثباتا وتأييدا لما قاله القدماء في هذا الباب.

الدرس الصوتي العربي: أصيل ثري .

ترك العرب القدماء وخاصة الخليل وسيبويه ثروة غنية وكبيرة في مجال الدراسة الصوتية، وتُعد اللغة العربية من اللغات القليلة التي حظيت بدراسة وافية لهذا الجانب بشكل يكاد يكون كاملا، فيما عدا بعض المباحث التي تركت، والتي لم يكن ممكنا لها أن تظهر في مثل ذلك العصر، وهي تلك التي تتطلب التقنيات المعملية الحديثة في دراستها والأجهزة اللازمة لذلك، والتي لم تكن موجودة آنذاك.

وكثيرا ما يحصل الخلاف بين الباحثين حول أصالة الدرس الصوتي عند العرب القدماء، وعند الخليل خاصة، باعتباره الرائد في هذا العلم، بين من يقول بأصالته وجدته وابتكاره عنهم، وبين قائل بتأثر الخليل بدراسات الأمم السابقة.

"أن بعض الدارسين المحدثين من عرب ومستشرقين ذهبوا إلى تأثر الخليل بصنيع الهنود الذين سبقوا إلى الحديث عن مخارج الأصوات وصفاتها، ومع أن حسم القضية لصالح هؤلاء أو غيرهم ممن يعدون الدرس الصوتي عند العرب منبثقا من معطياتهم، ليس بالأمر المتيسر لنقص الأدلة التي تثبت التأثر أو نفيه" [61].

يقول محمود السعران في المسألة: "هل أخذ العرب أصول تصنيف الأصوات ووصفها عن الهنود؟ أو هل تأثروا بهم في ذلك؟ ولا سيما أن ذلك قد ظهر عند العرب دفعة واحدة، وظهر عند سيبويه كاملا، ثم إن دوائر البحور الشعرية التي وصفها الخليل صاحب العروض، نجد شبيها لها عند الهنود من قبل. إن أخْذ العرب عن الهنود في الميادين الصوتية واللغوية عامة، أو تأثرهم بهم أمر محتمل نظرا، ولكننا لا نملك من الأدلة ما يدعونا من القطع بأن أخذا أو تأثرا قد حدث في هذا المجال أو ذاك" [62].

ويقول شوقي ضيف عن الخليل مرجحا احتمال تأثره بدراسات الهنود الصوتية: "ويظهر أنه عرف المباحث الصوتية عند الهنود وكانت قد نمت عندهم نموا كبيرا واسعا، وأضاف على ضوئها مادة صوتية غزيرة" [63].

ولكن نفتقد الأدلة المقنعة والكافية عند القائلين بالتأثر، الذي يعتبر احتمالا لا أكثر، مما دفع بدارسين آخرين إلى القول بأصالة الدرس الصوتي عند العرب، ويرون جدته وابتكاره عندهم "ولهذا فإن ما وُصل من نتائج في حقل الدراسات الصوتية عند علماء العربية، يعد سبقا كبيرا جدا، إذا ما قورن بكثير من الحقائق التي لم يُتوصل فيها إلى وضوح إلا مؤخرا، بالاستعانة بالتطور العلمي المطرد" [64].

وقد كان ذلك نتيجة لأسباب خاصة وجدت عند العرب، فـ "هناك أصلان لهذا الدرس الصوتي انبثق منهما... وهما اللغة ومعارفها، والقراءات القرآنية ووجوهها الصوتية" [65].

"إن الدارس يرى أن ما جاء به الخليل متفق وعبقرية هذا الرائد الذي أقام صرح الدرس اللغوي والنحوي عند العرب، وشقق مسائله، وابتدع أصوله، ومنسجم والبيئة الحضارية الناهضة التي شاع فيها الابتكار عصرئذ شيوعا واسعا" [66].

ومع قصر الفترة الزمنية التي نشأ فها الدرس الصوتي وتطور، إلا أنها كانت كافية لجعله ثريا، عميقا، ومهما "إننا نرى أن الدرس الصوتي فاق بسعته، وعمقه، وتعدد مجالات درسه، وتطبيقه، ما عرفه علماء اللغة حتى العصر الحديث" [67].

ولم تكن فائدته محصورة في دارسة اللغة وأصواتها فقط "بل صار وسيلة لفهم التغيرات الصرفية كالإدغام والإبدال ونحوها عند تلميذه – تلميذ الخليل – سيبويه، كما صار الأساس النظري المحكم لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، هذا إلى كونه حظي باهتمام البلاغيين ودارسي الإعجاز" [68].

واستفاد البلاغيون أيضا من معطيات الدرس الصوتي في خدمة علومهم، فهم مثلا "عرضوا لفصاحة الكلمة بحسب المخارج، وائتلاف الحروف، لبيان حسن التأليف وقبحه" [69].

واستفاد القراء وأهل التجويد أيضا، بل هم أكثر العلماء استفادة مما قدمه الخليل وسيبويه، وما كان ظهور علم التجويد إلا "نتيجة لتظافر القراءات من جهة، والدرس الصوتي من جهة أخرى" [70].

"ومما يؤكد براعتهم ونبوغهم في هذا العلم، أنهم قد توصلوا إلى ما توصلوا إليه من حقائق مدهشة، دون الاستعانة بأية أجهزة أو آلات تعينهم على البحث والدراسة، كما نفعل نحن اليوم" [71].

الخاتمة

أبدع العرب القدماء في مجال البحث الصوتي ما لم تبدعه الأمم الأخرى، فقد أحاطوا إحاطة شبه تامة بمختلف المباحث الصوتية وفي موضوع النطقيات خاصة، بحديثهم عن مخارج الحروف وصفاتها وما يعرض لها، ووصفهم المستفيض للجهاز النطقي، كما يغفلوا الحديث عن مسائل الفنولوجيا فيما يتعلق بالفونيمات وتنوعاتها الصوتية والظواهر المتحكمة في ذلك، وإذا كانوا قد أغفلوا الجوانب الفيزيائية في الدرس الصوتي فإن ذلك يرجع إلى أسباب تتجاوزهم، وهي تتعلق بالتطور التقني الحديث وما وفر من أجهزة ووسائل تعين على التشخيص الدقيق للأصوات اللغوية، وحتى وإن وقعوا في بعض الهفوات - كما قد يرى البعض- فلهم عذرهم في ذلك إذ إنهم لم يعتمدوا إلا على أحاسيسهم وأذواقهم ومع ذلك كان رائدين في تناول المباحث الصوتية وتفصيلها.

الهوامش:

1- أحمد محمد قدور، اللسانيات وآفاق الدرس اللغوي، دار الفكر، ط1، سنة 2001، دمشق، ص 48.
2- المرجع نفسه، ص48.
3- عبد العزيز الصيغ، المصطلح الصوتي، دار الفكر، ط 1، سنة 2000، دمشق، ص 15.
4- محمد سالم محيسن، القراءات وأثرها في علوم العربية، دار الجيل، ط1، سنة 1998، بيروت، ج1، ص50.
5- أحمد محمد قدور، اللسانيات وآفاق الدرس اللغوي، ص 42/41.
6- المرجع نفسه، ص 48.
7- المرجع نفسه، ص68/67.
8- المرجع نفسه ، ص 63.
9- المرجع نفسه ص 43.
10- أحمد مختار عمرو، البحث اللغوي عند العرب، مع دراسة لقضية التأثر والتأثير،القاهرة، دار العلوم، ص179.
11- حلمي خليل ، دراسات في اللغة والمعاجم، ط1. بيروت:1998، دار النهضة، ص129.
12- حسين نصّار، المعجم العربي: نشأته وتطوره، ط4. مصر:1988، دار مصر للطباعة،ج1، ص175.
13- كمال بشر، علم الأصوات دار غريب، سنة 2000، القاهرة. ، ص47/46.
14- أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، دار الفكر، ط5، سنة: 1999، دمشق ، ص 44.
15- أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب، سنة: 1997، القاهرة، ص 19.
16- سامي عياد حنا وآخرون، معجم اللسانيات الحديثة، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان ، ص 103.
17- الخليل بن أحمد الفراهيدي، معجم العين، تح: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دط.1980، دار الرشيد للنشر، ص57.
18- نفسه، ص57./58

19- نفسه، ص58.

20- العين، ص58.

21- نفسه، ص58.

22 - ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، سنة 1956، بيروت ، ج 8، ص 357.

23 - نفسه، ص 357.

24- العين، ص58.

25- العين، ص51.

26- محمد بن الجزري، متن الجزرية، مكتبة الرسالة، ص7.

27- نفسه، ص7.

28- العين، ص52.

29- نفسه، ص 57.

30 - نفسه، ص 54.

31 - نفسه، ص 54.

32- سبويه، الكتاب، دار الجيل، ط 1، بيروت، تحقيق، عبد السلام هارون ، ج4، ص431.

33- نفسه، ص432.

34- نفسه، ص432.

35- نفسه، ص433- 434.

36- نفسه، ص434.

37- نفسه، ص434.

38- نفسه.

39- نفسه.

40 - عبد العزيز الصيغ، المصطلح الصوتي، دار الفكر، ط 1، سنة 2000، دمشق ، ص 109.

41- نفسه، ص109.

42- سبويه، الكتاب، ص434- 435.

43- المرجع نفسه.

44- نفسه، ص436.

45- نفسه، ص436.

46- المرجع نفسه، ص435.

47- نفسه، ص435.

48- نفسه، ص435.

49- المرجع نفسه، ص435.

50 - نفسه، ص 434.

51 - نفسه، ص 434.

52 - Malmberg Bertil :Phonetics , 1963, new yourk ,p 169

53 - غانم قدوري الحمد، المدخل إلى علم أصوات العربية ، مطبعة المجمع العلمي، سنة:2002، القاهرة ، ص102.
54 - محمد علي الخولي، المدخل إلى علم اللغة، دار الفلاح للنشر والتوزيع، سنة:2000، الأردن ، ص31.
55 - يوسف غازي، مدخل إلى الألسنية، منشورات العالم العربي الجامعية، ط1، سنة: 1985، بيروت، ص123.
56 - محمود فهمي حجازي، مدخل إلى علم اللغة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، سنة: 1988، القاهرة ، ص52.
57 - تمام حسان، اللغة العربية : معناها ومبناها،دار عالم الكتب، ط3، سنة:1998، القاهرة ، ص82.
58 - سيبويه، الكتاب، ج 4، 434.
59 - كمال بشر، علم الأصوات، ص 247.
60 - إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، المكتبة الأنجلو مصرية، ط4 ، سنة: 1999 ، القاهرة ، ص24.
61- أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، ص 38.
62- محمود السعران، علم اللغة، دار الفكر العربي، ط 2، سنة: 1997، القاهرة ، ص 81.
63- شوقي ضيف، المدارس النحوية، دار المعارف، ط8، سنة 1998، القاهرة، ص 32.
64- عبد العزيز الصيغ، المصطلح الصوتي، ص 16.
65- أحمد محمد قدور، اللسانيات وآفاق الدرس اللغوي، ص 64.
66- أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، ص 38.
67- نفسه، ص38.
68- نفسه، ص 39.
69- عبد العزيز الصيغ، المصطلح الصوتي، ص 15.
70- أحمد محمد قدور، اللسانيات وآفاق الدرس اللغوي، ص 67.
71- عبد الراجحي، فقه اللغة في الكتب العربية، دار النهضة العربية، سنة 1979، ص 135.